الاغتراب فـي رثاء الشريف الرضي

أ.م.د.علي عبد رمضان
م.م.طالب ماهر فهد
جامعة البصرة-كلية التربية للعلوم الانسانية
قسم اللغة العربية

ملخص البحث:

وقف البحث عند أهم المراثي التي عبر فيها الرضي عن جانب كبير من نفسيته وإحساسه بـالاغتراب وتغلغل الحزن في أعماقه ، وقد اتجه إلى إحساسه الخاص فتخلى فيه عن كثير من وقاره غير ملتفـت إلى أية قواعد أو تقاليد أو أعراف أو أية شرائط تُفرَض عليه من خارج نفسه المفجوعة وهـو يرثـي والدته أو والده أو أصدقاءَهُ ... بعد وفاتهم ، وإنَّ مشاهدته لتلك المآتم والمواكب الصاخبة التي كانـت تقام في يوم عاشورا كان لها أبلغ الأثر في نفسه ، لذلك حين يرثي الإمام الحسـين (عليـه السـلام) يصوغ أفكاره عبر لغة يستعين بها ليعبر عن مكنونات نفسه ومايساورها مـن انفعـالات وعواطـف لإيصالها إلى المتلقي ولذلك اختار صوراً أكثر إيلاماً وتأثيراً في النفوس . ولعله أراد من خلال ذلك إثارة العامة واستقلال عواطفهم من أجل الثورة وإزالة الظلم .

الكلمات المفتاحية : الاغتراب ، الرثاء ، الشريف الرضي

Alienation in Al-Shareef Al-Radhee Lamentation

Dr. Ali Abd Ramadan (Ph. D.)
Assist. Prof. Talib Mahir Fahad
University of Basra-College of Education for Human sciences
Arabic Department

Abstract

This research focuses on the most important lamentation poems by which Al-Shareef Al-Radhee expresses his feeling of alienation and the penetration of sadness in his depths . He tends to his own sensation , so he gives up much of his solemnity disregarding any traditions , rules , customs or conditions imposed on him outside his distressed soul while lamenting his mother , father , or friends after death . Seeing processions and lamentation ceremonies holds in Ashour , had a great effect on him .

Therefore, when he laments Imam Hussein (P.B.U.H) , he forms his ideas through language using it to express his deep feelings and to express his passions and emotions to convey them to the receiver . Therefore, he uses more painful and impressive images . He might want to stimulate and use people's emotions to revolt and remove injustice .

Keywords: alienation, lamentation, Al-Shareef Al-Radhee

الاغتراب في رثاء الشريف الرضي

الرثاء كما هو معروف – فنياً – غرض تبعثه فجيعة الموت بعزيز راحل أو عظيم مفقـود ، وإبـداء الحزن على فراقه وتصوير الخسارة التي نجمت عن فقده ، ونماذجه كثيرة في أدبنـا العربـي منـذ الجاهلية حتى العصر الحديث، فقد أكثر الشعراء القول فيه مصورين أحزانهم ، جاهدين أنْ يفرغوا ما تفيض به أنفسهم من أسى ولوعة لعله يكون عزاء ومشاركة في المصاب .

والرثاء من أكثر الموضوعات ارتباطا بحياة الإنسان ؛ لأنّه يدور حول الموت الذي هو نهاية حتميـة لكل إنسان، فلذلك جاءت المرثية تحمل نظرة الإنسان إلى الموت ، وهي نظرة يشوبها الحزن الشـديد على فراق الراحلين ، فالموت هو الذي أوجد قصائد الرثاء ، لذلك حفلت المراثي التي قالها الشـعراء بالخواطر والأفكار الفلسفية حول مشكلة الحياة والموت التي تزرع الحيرة والقلق في أعماقهم وتمنحهم النظرة الدقيقة والنافذة إلى تقلبات الدهر وصروفه ، فتمتزج هذه النظرة الفلسفية بعواطـف الشـاعر فتتحول إلى تجربة ذاتية يحقق من خلالها الشاعر غرضه ، فيدخل شعره القلوب لما فيه من تعبير عن العاطفة الصادقة البعيدة عن التكلف ، وفي ذلك يروي الجاحظ أنّه ((قيل لأعرابي : ما بال المراثـي أجود أشعارك ؟ قال : لأنا نقول وأكبادنا تحترق)) [١].

ولم يكن هناك ما يعكر صفو الحياة عند شاعرنا الشريف الرضي أشد من فقد الأحبة الذي تحترق لـه الأكباد ؛ لذلك ليس غريباً إذا ما فقد الرضي عزيزاً عليه أنْ تثار في نفسـه لـواعج الحـزن والألـم فـ((فقدالأحباب فاجعة تنوء النفوس بآلامها فيجيء رثاؤهم ملتاع الزفرات ملتهب العبرات))[٢]. فقـد توالت النكبات عليه ، فنكبة بوفاة أصدقائه وأخرى وهي التي اهتزت بها أركان حياته اهتزازاً عنيفـاً كما يرى عزيز السيد جاسم ، وهي فقده والدته ، فكانت أقسى اغتراب عانى منه شـاعرنا الشـريف الرضي[٣]، وذلك ماجسدته أشعاره في الرثاء التي شهدت تميزاً ملحوظاً وإجادة كبيرة أشاد بها النقـاد إذ يقول الثعالبي:((ولست أدري في شعراء العصر أحسن تصرفاً في المراثي منه))[٤]، أما ابن أبـي الحديد فقد وصفه بقوله : ((وإنْ قصد المراثي جاء سابقاً والشعراء منقطع أنفاسها علـى أثـره)[٥] ، وأطلق عليه الصفدي ((النائحة الثكلى))[٦]وقال عنه آدم متز ((ويعتبر الشريف الرضي في تـاريخ الأدب سيد أصحاب المراثي))[٧]. وقد كان كثير الرثاء ، ولعل السبب في ذلك يرجـع إلـى الـزخم العاطفي الذي كان يملأ أعماقه ، فضلاً عن الأقدار التي كانت سبباً في فقده لكثير ممن كان لهم مكانة خاصة لديه ، إذ فقد أمه وأباه، وأخته والأصفياء من أصدقائه ومنهم أبو إسحاق الصابي الذي خسـر تفهمه، فضلاً عن رثائياته في الجانب الديني، فيذكر ذلك قائلاً :

مـــــا أخْطَأَتْـــــكَ النّائبَـــــا ... تُ إذا أصَـــــابتْ مَـــــنْ تُحِـــــبُّ [٨]

وهذه الكثرة في الرثاء لا تعنينا بقدر ما يعنينا أنَّ الرضي قد عبر فيها عن جانب كبير مـن نفسـيته وإحساسه بالاغتراب وتغلغل الحزن في أعماقه ، وتجاربه الشديدة مع هذا الغرض الذي ينطلـق مـن عاطفة الحزن ، لذا كانت مرثيته في أمه تلك المرأة الصالحة التي أسبغتْ عليه نعم الحـب والرعايـة تفيض باللوعة وتنبض بالحزن وتعج بالبكاء في أصدق تعبير وأسمى شعور ، قائلاً :

أبْكِيْـكِ لَـوْ نَفَّـعَ الغَلِيْـل بُكـائي ... وَأقُـولُ لَـوْ ذَهَـبَ المَقَـالُ بِـدائي

وَأعُـوذُ بالصّـبْرِ الجَمِيْـلِ تَعَزّيـا ... لَـوْ كَـانَ بالصّـبرْ الجَمِيـلِ عَزائـي

طَـوْراً تُكـاثِرُني الـدّمُوْعُ وتـارةً ... آوِي إلـى أكْرومَتـي وَحَيـائي

كَـمْ عَبْـرةٍ مَوّهتُهـا بأنَـامِلِي ... وَسَـترتُها مُـتَجمّلاً بردائـي

أبْـدي التّجَلّـدَ للعَـدُوّ ولَـوْ درَى ... بتَمَلْمُلـي لَقَـد اشـتَفَى أعـدائي

مَا كُنتُ أذخَـرُ فـي فِـداكِ رَغِيبَـةً ... لَـوْ كَـانَ يَرْجِـعُ مَيّـتٌ بفِـداءِ(٩)

إنَّ إحساسه بالضياع والاستلاب جاء من جراء شدة وقع الحدث لذا نجده يتجاوز في حزنه حدوده المعقولة وتجتمع فيه كل ملكات الوعي واللاوعي فيتخلى عن كثير من وقاره غير ملتفت إلى أية قواعد أو تقاليد أو أعراف أو أية شرائط تفرض عليه من خارج نفسه المفجوعة ، ويبدو أنّ هذه الحادثة قد أفقدته زمام السيطرة على نفسه فخضع لقوى النفس العاطفية فصور فيها مشاعر شتى انتابته جراء هذا الفقد المؤلم ، ولذا يمكننا القول أنَّ العامل الذاتي هو الذي حمل الشاعر على صياغة هذه الأبيات التي كشف من خلالها عن حسه الاغترابي .

وتمضي القصيدة بهذا الاتجاه معبراً فيها عن ضيق نفسه وتحسره لما حل به مصوراً حالته عند موت من يحب ، وانعكاس المصيبة عليه وعلى سلوكه ،وما يرافق ذلك من أنات وانفعالات ، فيقول :

فَارقْـتُ فِيـكِ تَماسُـكي وتَجَمُّلـي ... وَنَسِـيتُ فيـكِ تعَـزُّزي وإبَـائي

وَصـنَعْتُ مَـاثلَمَ الوَقَـارَ صَـنيعُهُ ... مِمّـا عَرَانـي مِـنْ جَـوَى البُرَحَـاءِ

كَـمْ زفْـرَةٍ ضَـعُفتْ فَصَـارتْ أنّـةً ... تَمّمْتُهَـا بتَـنَفسِ الصُّـعَداءِ

لَهْفَـانَ أنْـزُو فـي حبَائـلِ كُرْبَـةٍ ... مَلَكَـتْ عَلَـيّ جَلادَتـي وَغَنَـائي

وَجـرَى الزّمَـانُ عَلـى عَوائـدِ كَيْـدِهِ ... فـي قَلْـبِ آمَـالي ، وَعَكْـسِ رَجَـائي

قَـدْ كُنـتُ آمُـلُ أنْ أكـونَ لـكِ الفِـدا ... مِمّـا أَلَـمّ ، فكُنـتِ أنْـتِ فِـدائي

وَتَفَـرُّقُ البُعَـدَاءِ بَعْـدَ مَـوَدّةٍ ... صَـعْبٌ ، فكَيْـفَ تَفَـرّقُ القُرَبَـاءِ

....

لَـوْ كَـانَ مِثلَـكِ كُـلُّ أمّ بَـرةٍ ... غَنِـيَ البَنُـونَ بِهَـا عَـنِ الآبَـاءِ

كَيـفَ السّـلُوّ وكُـلّ مَوْقِـعِ لحظَـة ... أثَـرٌ لفَضْـلِكِ خالِـدٌ بـإزَائي(١٠)

وهنا يؤكد الشاعر شدة وقع المأساة عليه في مشاهد من مفارقة التماسك والتجمل ، ونسيان التعزز والإباء ، والجوى الذي يثلم الوقار وتصاعد الزفرات والأنات ، وشدة الكربة التي عصفت بالجلادة

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٤ – السنة ٢٠١٩

والثبات . وإنَّ عجز الشاعر أمام هذا الحدث جعله ينقلب إلى ذاته في حديث تملأه الحسرة إذ يتمنى فداء والدته بنفسه .

ثم يذكر الرضي بعض سمات الفقيدة ومزاياها ، لكنه في خاتمة القصيدة يعود إلى صوت ذاته ، محاولاً إيصاله إلى شخص والدته عبر أحجار القبر وترابهِ قائلاً :

لَوْ كَانَ يُبْلِغُكِ الصّفيحُ رَسَائِلي ... أوْ كانَ يُسْمِعُكِ التّرابُ نِدائي

لَسَمِعتِ طُولَ تَأوّهي وتَفَجّعي ... وَعَلِمْتِ حُسْنَ رِعايَتي ووَفَائي

كَانَ ارْتِكاضِي فِي حَشاكِ مُسَبّبا ... رَكضَ الغَلِيلِ عَلَيكِ فِي أحْشَائي[١١]

وهنا تظهر رغبته التي يروم تبليغها لأمه عبر رسائله لإيصال ندائه وتفجعه بعد رحيلها ، بل هو يعود إلى زمن وجوده وتحركه في أحشائها جنيناً مثلما يوضحُ ذلك البيت الثالث .

وهكذا نجد أنَّ القصيدة بعامة تعبر عن اغتراب الشريف الرضي الذي يحسه في فراق والدته ، وقد جاءت في البحر الكامل ذي التفعيلات الستة السباعية ، التي يستطيع الشاعر أنْ يصب فيها أشجانه ويعبر عن حزنه وألمه ، إذ استطاع بهذه القافية وهذا الروي ، أنْ يعكس خلجاته النفسية وإحساسه بالأسى والانفعال .

ومن حالات الاغتراب التي عانى منها الشريف الرضي والتي تركت أثرها في نتاجه الشعري وفاة الشخص الذي كان يمثل له كيانه وشخصيته وقدوته ، والذي كان يرى فيه نفسه وطموحه وآماله ذلك هو والده الطاهر الأوحد ذو المناقب أبو أحمد الحسين الموسوي الذي وافته المنية في سنة ٤٠٠ه ، فرثاه ابنه الشريف الرضي في قصيدة عبر فيها عن حرارة عاطفته وغزارة دموعه قائلاً :

وَسَمتَكَ حالِيَةُ الرّبيعِ المُرهِمِ ... وَسَقَتْكَ ساقِيَةُ الغَمَامِ المُرْزِمِ

وَغَدتْ عَلَيكَ مِنَ الحَيا بمُوَدِّعٍ ... لا عَنْ قِلى ، وَمِنَ النّدَى بُمسَلْمِ

قَد كُنتُ أعذُلُ قَبلَ مَوْتِكَ مَن بكى ... فَاليَوْمَ لِي عَجَبٌ مِنَ المُتَبَسَّمِ

وَأذُودُ دَمعِي أنْ يَبُلّ مَحاجِرِي ... فَاليَوْمَ أُعْلِمُهُ بِمَا لَمْ يَعْلَمِ

لا قُلْتُ بَعدَكَ للمَدامِعِ كفكِفِي ... مِنْ عَبرَةٍ وَلَوَ انّ دَمعِي مِن دَمِي

....

اليَوْمَ أغمَدْتُ المُهَنّدَ فِي الثّرَى ... وَدَفَنتُ هَضْبَ مُتَالِعٍ وَيَلَمْلَمِ

....

هَتَفَ الحِمامُ بِهِ فكانَ وَصَاتَهُ ... بَذْلُ الرّغائِبِ وَاحتِمَالُ المَغرَمِ

....

هَلْ مِنْ أبٍ كَأبي لجُرْحِ مُلِمّةٍ ... أعيَا ، وَشَعْبِ عَظِيمَةٍ لَمْ يُلأَمِ

إنّ الخُطُوبَ الطّارِقَاتِ فَجَعْتَنا ... بِحِمَى الأبِيّ ، وَجُنّةِ المُسْتَلْئِمِ[١٢]

فما بكاء الشريف الرضي على والده إلاّ لشعوره باليأس والهول مما ينتظره في غده المعتم الذي أعده

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٤ – السنة ٢٠١٩

له القدر في حناياه بعد أنْ فقده فضلاً عن حزنه وجزعه لفقده .

وهو يصور لنا انعكاس هذه المصيبة عليه بقوله :

أعريتَ ظَهراً للعِـدا، ولَـو اتّقَـى ... بزُهَـاءِ مُـزدَحِمِ العَدِيـدِ عَرَمْـرَمِ

وكَشَـفْتَ للأيّـامِ عَـوْرَةً مَقتَلـي ... حتّـى رَدَدْنَ علـيّ بَعـدَكَ أسـهُمي

قَدْ كُنتَ مَا بَينـي وبَـينَ سِـهَامِهَا ... فَاليَوْمَ لا يُخطِـينَ شـاكِلَةَ الرَّمـيّ[١٣]

فموت والده مصيبة كشف للأعداء عورة مقتله ، ولو اتقى بجمع من الأعوان والأنصار ؛لأنّ أباه كان بينه وبين سهام الأعداء كالمجن ، أمّا وقد ذهب ، فإنَّ السهام لا تخطىء مرماها ، فقد كان الشـريف الرضي يرى منزلة والده فوق منزلة الملوك والخلفاء ؛ لما يتمتع به من شرف وشجاعة فـي الشـدة وسيادة قومه وعشيرته وحسن كفايته ، وهذه الشخصية قد هيأت للرضي موقعه وزرعت فـي نفسـه الطموح؛ لذا قد خلف موته في نفسه اغتراباً سياسياً واجتماعياً بعد أنّ تركه ورحل فضـاعت آمالـه وطموحاته وتضاعفت همومه واحزانه في هذه الحياة فعبر عن ذلك الفقد بتلك الأبيات الحزينة الناتجة عن اغترابه . ولقد حلت بالشريف الرضي نكبة أخرى لم تكن أقل وقعا وتأثيراً في نفسه وهي فاجعته بنبأ وفاة شخص قريب على قلبه ووجدانه وموضع أمله ألا وهو صديقه المخلص أبو إسحاق الصـابي الذي كان قد تنبأ له بالخلافة ، وكان يراسله ليعمق هذا الأمر في نفسه ؛ لذلك كان للشريف الرضي فيه مراثٍ عدة حظيت بنزوعه إلى ذاته وبث لواعجها ، على الرغم من تباين الانتماء العقائدي ، والنسب ، وكذلك العمر إذ كان الشريف الرضي في أواسط عقده الثالث في حين يكاد الصابي أنْ يتم عقده التاسع [١٤]، بيد أنَّ ذلك كله لم يقف حائلاً إزاء تدفق وجدان الشاعر الحزين ، واحتدام عواطفه ، والإعـلان عن ذلك في قصيدة تعد من الفرائد في الشعر العربي سُمِّيَتْ بالقصيدة العصماء ومنها قوله :

أعَلِمْتَ مَنْ حَمَلُـوا عَلـى الأعْـوادِ ... أرأيْـتَ كَيْـفَ خَبَـا ضِـيَاءُ النّـادِي

جَبَلٌ هَوَى لوْ خَرّ في البَحرِ اَغْتَـدى ... مِـنْ وَقْعِـهِ مُتَتَـابِعَ الإزْبَـادِ

ما كنتُ أعلَمُ قبلَ حَطّكَ فـي الثّـرى ... أنَ الثّـرّى يَعْلُـو عَلـى الأطْـوادِ

....

يا لَيتَ أنّـي مـا اقتَنَيتُـكَ صـاحِباً ... كَـمْ قِنيَـةٍ جَلَبَـتْ أسـىً لِفُـؤادِي

....

لا تَطلُبِـي ، يـانَفسِ ،خِـلاً بَعـدَهُ ... فَلَمِثْلُـهُ أعيَـا عَلـى المُرْتَـادِ

فُقِـدَتْ ملائِمَـةُ الشُّـكولَ بفقْـدِهِ ... وَبَقِيْـتُ بَـيْنَ تَبَـايُنِ الأضْـدادِ

مَـا مَطْعَـمُ الـدّنيَا بحُلْـوٍ بَعْـدهُ ... أبَـدا ، ولا مَـاءُ الحَيَـا ببُـرَادِ

....

ضَاقَتْ عَلَـيَّ الأرضُ بَعْـدكَ كُلهَّـا ... وَتَركْـتَ أضـيْقَها عَلـيّ بِـلادِي

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٤ – السنة ٢٠١٩

لكَ في الحَشَى قَبرٌ ، وَإنْ لَـمْ تـأوِهِ وَمِـــنَ الـــدّمُوعِ رَوائِـــحٌ وَغَـــوَادِ

سَلّوا مِنَ الأبْـرَادِ جِسْـمُكَ وَانثَنَـى جِسْمِي يُسَلُّ عَلَيْـكَ فـي الأبْـرَادِ (١٥)

عمد الرضي إلى أنْ يبدأ قصيدته الرثائية باستخدام أسلوب الاستفهام لتأكيد الإحساس بالفقد وتقريره بالنفوس ، وذلك لفداحة الخطب وجسامة الملم النازل به . فقد عبر فيه عما يجول في داخله من خوف ويأس من الحياة بعد فقده لصديقه الصابي عكسه شعوره بالاغتراب عن مجتمعه .

فالرضي يخاطب نفسه ، ويحثها على عدم البحث عن خليل بعده ؛ لأنّها سوف تعيا ولن تجد ، وبفقده فقد قريناً وصفيا ، لا يمكن تعويضه ، فبقي يعاني في نفسه الاغتراب بين من لا ينتمي إليهم بروحه وذاته ، فأصبحت الأرض ضيقة والبلاد أشد ضيقا ، فذكرى الصابي لم تبرح وبقيت عاكفة في الحشا مجرية للدموع .

ويقول الرضي متحدثاً عن همومه لفقده الصابي وماكان يتسم به من فصاحة وبلاغة كان عليها في حياته :

مِمّـــا يُطِيـــلُ الهَـــمَّ أنّ أمَامَنَـــا طُـــولَ الطّرِيـــقِ وَقِلّـــةَ الأزوَادِ

عُمرِي ! لقَد أغمَـدتُ منـكَ مُهَنّـداً فـــي التُّـــربِ كـــانَ مُمَـــزّقَ الأغْمَـــادِ

قَدْ كنتُ أهوَى أنْ أشَـاطِرَكَ الـرّدى لَكِـــنْ أرَادَ اللهُ غَيـــرَ مُـــرَادِي

....

ثَكِلَتْـكَ أرْضٌ لَـمْ تَلِـدْ لـكَ ثانِيـاً أنّـــى ، وَمِثْلُـــكَ مُعْـــوَذُ المِـــيلادِ

مَنْ للبَلاغَـةِ وَالفَصَـاحَةِ إنْ هَمَـى ذاكَ الغَمَـــامُ ،وَعَـــبَّ ذاكَ الـــوَادِي

مَـــنْ للمُلُـوكِ يَجُـزُّ فـي أعْـدَائِهَا بِظُبُـــىً مِـــنَ القَـــوْلِ البَلِيـــغِ حِـــدَادِ

مَـــنْ للمَمَالِـــكِ لا يَـــزَالُ يُلمُّهَـــا بِسِـــدادِ أمْـــرٍ ضَـــائِعٍ وَسَـــدَادِ(١٦)

وعلى ما يبدو أن الشريف الرضي حاول أنْ يقيم معادلاً موضوعياً ليخلص من توتره بعد فقده فاتجه إلى الإشادة بفضائل المرثي لحماية نفسه من الضياع والاستلاب ؛ لأنَّ شدة وطأة وقع الحدث على الشريف الرضي هي التي دفعت به إلى سرد فضائله فضلاً عن هذا فهو قد بكاه بكاء صادراً عن عبرة سفحها محب لفراق أحبته أيضاً . كما وجدناه قد كرر الاستفهام بـــ (من) أكثر من مرة تعبيراً عن إحساسه العميق بالحيرة والاضطراب بعد فقده الصابي فقد جسدت هذه الصياغة شعوره بالضياع .

ولا ينسى الشريف الرضي صداقته للصابي الذي ترك فراغاً كبيراً عند رحيله ، فعند اجتيازه على قبره في الجنينة ببغداد قال :

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٤ – السنة ٢٠١٩

أيَعْلَـــمُ قَبْـــرٌ بالجُنَيْنَـــةِ أنّنَـــا ... أقَمنْـــا بـــهِ نَنْعَـــى النّـــدَى والمَعالِيَـــا

حَطَطْنـــا ، فَحَيّينَـــا مَسَـــاعِيه أنّهَـــا ... عظَـــامُ المســـاعَي لا العِظـــام البَوَاليَـــا

مَرَرنا بِـــهِ ، فاستشـــرفَتنا رُسُـــومهُ ... كما استشرَفَ الرّوضُ الظّباءَ الجوَازِيَـــا

وَما لاحَ ذاكَ التُّـــربٌ حَتـــى تحلّبـــتْ ... مِنَ الدّمعِ أوْشَـــالٌ مـــلأنَ المآقِيَـــا(١٧)

وتستمر هذه الرابطة ويدل على عمق هذه الرابطة بالمشاعر النابضة وحين يمر بعـــد عشـــر سنوات على قبر صديقه ، ولاشك أنّه دارس فتثير فيه عهود الصداقة العواطف التي تفيض بداهـــة ، فيقول :

لَوْلا يَـــذُمُّ الرّكْـــبُ عِنـــدَكَ مَـــوقِفي ... حَيَّيـــتُ قَبْـــرَكَ ، يَـــا أبَـــا إســـحَاق

كيفَ اشتياقُكَ مُـــذُ نأيـــتَ إلـــى أخٍ ... قَلـــقَ الضّـــمِيرِ إلَيْـــكَ بِالأشـــوَاق

هَلْ تَذْكُرُ الزّمَنَ الأنيـــق ، وَعَيشُـــنا ... يَحْلُـــو عَلـــى مُتَأمِّـــلٍ وَمَـــذاق

ولَيَالِيَ الصَّـــبوَاتِ ، وَهـــيَ قَصَـــائِرٌ ... خَطْفَ الـــوَميضِ بعَـــارضٍ مِبْـــرَاق(١٨)

إنّ شدة وقع المصاب فتق عند الشريف الرضي الإحساس بـــالاغتراب فهـــو إلـــى جانـــب إحساســـه بالاغتراب الاجتماعي لفقده الصابي يعيش كذلك اغتراباً نفسياً مؤلماً مفعماً بالمخاوف ينم عـــن قلـــق وتوتر؛ لأنَّ رثاء الشريف الرضي لأبي إسحاق الصابي رثاء لطموحاته التي ماتت بموته وذلـــك مـــا نلمسه في طيّات تلك الأبيات الشعرية .

إذن فلا عجب إذا مامدح الشريف الرضي أبا إسحاق الصابي في حياته ورثاه فـــي مماتـــه مســـتذكراً مواقفه بجانبه . وإنْ كان فريق من القوم أنكر على الشريف رثاءَهُ للصابي إلاّ أنّه لم يرَ غضاضة في رثائه رجلا على غير دينه كان قد أخلص إليه ، ولمس فيه فضائل جمة بغض النظر عن صائبيته فهذه لا أثر لها في حسن المعاشرة ودماثة الخلق ، فضلا عما كان يتصف به الصابي من رجاحـــة عقـــل وحنكة ودارية وصلابة في العقيدة السياسية . فكل ذلك ترك أثراً ليس بالقليل فـــي نفـــس الشـــريف الرضي بعد ما تركه الصابي غريبا ورحل إلى جوار ربه (١٩) ؛ لـــذلك لا يصـــبر الرضـــي دون أنْ يخاطب صاحبه بحرقة بالغة مستبعداً يوم وفاة الصابي هذا اليوم الذي أذى العيون فيسأله بقوله :

كَيفَ انْمَحَى ذاكَ الجَنَـــابُ وَعُطّلَـــتْ ... تلـــكَ الفِجـــاجُ وَضَـــلّ ذاكَ الهَـــادِي

طاحَـــتْ بتِلْـــكَ المَكْرُمَـــاتِ طـــوائحٌ ... وَعَـــدَتْ عَلَـــى ذاكَ الجَـــوَادِ عَـــوَادِ(٢٠)

فمن حق الشريف الرضي وقد عاشره حقبة من الزمن أن يتألم لفقده ويختل توازنه وينتابـــه إحســـاس بالاغتراب يلازمه لسنوات عديدة لشدة وقع الحدث على نفسه .

وقد كانت حيوية البحر الكامل واضحة في مرثيته هذه وبعض مراثيه الأخرى الذي اســـتمد الشـــريف الرضي من تفعيلاته روعة المرثية إذ جاءت الغربة النفسية مجسدة فيه للانفعالات التي اعتملـــت فـــي

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٤ – السنة ٢٠١٩

صدر الشاعر لما لبحر الكامل من ((لون خاص من الموسيقى يجعله جلـيلاً مـع عنصـر ترنمـي ظاهر))[٢١] والشريف الرضي كان كثير الولع بهذا البحر في شعره الرثائي وذلك ما لمسناه في ديوانـه .

ولا ينسى الشريف الرضي أنْ يقف وقفة مَنْ يعطي كل شيء حقه ويسم كل امرىء بميسمه في محاولة للرد على مَنْ يلومه على ذلك الضرب من المغالاة بالمدح والثناء في رثائه للصابي ، فلا يبقى منجرفاً بتأثير العاطفة التي جاشت فجاءت بالأعاجيب ؛ لذلك عرج على ذكر هذه الناحية مشيراً إلى التفـاوت في الفضل والنسب والسن بينهما[٢٢] إذ يقول :

الفَضْلُ نَاسَـبَ بَيْنَنَـا إنْ لـم يُكُـن ... شَـــرَفي منُاَسِـــبَهُ وَلا مِـــيلادِي

إنْ لمْ تكُنْ مِنْ أسـرَتي وَعشِـيرَتي ... فَلأنْـــت أعْلَقُهُـــمْ يَـــداً بـــوَدادِي

لَوْ لمْ تكُنْ عالي الأصولِ فقـد وَفَـى ... شَـــرفُ الجُـــدُودِ بسُـــؤدُد الأجْـــدادِ

لا دَرَّ دَرّي إنْ مطَلتُـــــكَ ذِمـــــةٌ ... فـــي بَـــاطنٍ مُتَغَيِّـــبٍ ، أوبَـــادِ[٢٣]

وتعرض الشريف الرضي إلى نكبة وخيبة أمل أخرى وهي مقتل الرجل الذي كان يعتمد عليـه وقـد عاهده أنّ يدعو إليه في أمر الخلافة وهو (ابن ليلى) [*] الذي قتله بنو تميم بعد أنْ دعاهم فخالفوه وقتلوه لذلك خلّفت وفاته عند الرضي اغتراباً نتج عنه شعورٌ بالتوجع والتحسر لفقده داعيته فعبر عـن ذلـك الفقد في أبياته التي يقول فيها :

أُدارِي المُقلتَـينِ عَـنِ ابـنِ لَيلَـى ... وَيَـــأبَى دَمْعُهَـــا إلّـــا لَجَاجَـــا

لهَـا ثَـبْطٌ عَلـى الأيّـامِ بَـاقٍ ... تَجِـيشُ بِهَـا مَعِينـاً أوْ أُجَاجَـا

كَـأنّ بِهَـا رَكِيّـةَ مُسـتَمِيتٍ ... يُخَضْخِضُـــها بُكُـــوراً وَادّلاجَـــا

....

كَأنّ العَـيْنَ ، بَعـدَ اليَـوْمِ ، جُـرْحٌ ... إذا طَبّـوا لَـهُ غَلَـبَ العِلاجَـا

تَجُمُّ على القَـذى ، وَتَفـيضُ دَمعـاً ... مَطَـالُ الـدّاءِ وَادَعَ ثُـمّ هَاجَـا

وَأيـنَ كَفَـارِسِ الفُرْسَـانِ عمـرو ... إذا رُزْءٌ مِـنَ الحِـدْثَانِ فَاجَـا

بِحَـق كَـانَ أوّلَهُـمْ وُلُوجـاً ... عَلـى هَـوْلٍ وَآخـرَهُم خَرَاجَـا

بَكَيْتُـكَ للسّـوابِقِ مُوضَـعَاتٍ ... قِماصُ السِّـربِ أعْجَـزَ أنْ يُعاجَـا[٢٤]

وقد تفجع عليه أعظم تفجع ، وشهدت أشعاره بأنّه كان يرى ذلك الرجل من كرام الأصفياء ؛ لذلك بكاه الرضي وأكثر من رثائه ، ومن ذلك قصيدته التي يقول فيها :

لَعَمْرُ الطيّر ، يوْمَ ثَوَى ابـنُ لَيلـى ... لَقَـدْ عَكَفَـتْ عَلـى لَحـمٍ كَـرِيمِ

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٤ – السنة ٢٠١٩

أحِـــنُّ إلَيْـــهِ ،وَاللُّقْيَـــا ضِـــمَارٌ ... حَنِـــيْنَ العَـــوْدِ للْـــوَطَنِ القَـــدِيْمِ
وَأنْشُـــدهُ ، وأعْلَـــمُ أيْـــنَ أمسْـــىَ ... مِطَـــــالاً للبَلاْبِـــــلِ والهُمُـــــومِ
كَأدمـــاءِ القَـــرَا نَشَـــدتْ طُلَاْهـــا ... وَمَـــا وِجـــدَانُ جَازِيَـــةٍ بَغُـــومِ
تُطِيـــعُ اليَـــأسَ ثَـــمَّ تَعـــودُ وَجْـــداً ... إلَيْـــهِ ، بالمقَصَّـــةِ والشَّـــمِيْمِ (٢٥)

فكان الشريف الرضي يحس الوحدة وخيبة الأمل وضيق الحياة ؛ لذلك كان يذكر ابن ليلى كلما ضجر في أسفاره ، فكأنه كان يراه ملك البيداء (٢٦).

كذلك يرثي الشريف الرضي الصاحب بن عباد (*)بقصيدة فريدة حين بلغه نعيه وتمنـــى أن لا يكـــون الخبر يقيناً إذ ساور الناس الشك في بداية الأمر، أشار فيها إلى ضياع أمله وخيبته فيما كـــان يرجـــوه بقربه من إقبال إذ يقول في هذا المعنى :

أكَـــذَا المَنُـــونُ تُقَنْطِـــرُ الأبْطَـــالا ... أكَـــذا الزّمَـــانُ يُضَعْضِـــعُ الأجْيَـــالا
....
خَبَـــرٌ تَمَخّـــضَ بالأحِبّـــةِ ذِكْـــرُهُ ... قَبـــلَ اليَقِـــينَ ، وَأسْـــلَفَ البَلبَـــالا
حَتـــــــــــــــــــــى إذا ... صَـــــــــــــــــــــدَعَ
جَـــــــــــــــــــــلّ الظّـــــــــــــــــــــنُونَ ... القُـــــــــــــــــــــلُوبَ ،
قَدْ كُنـــتُ آمُـــلُ أنْ أرَاكَ ، فـــأجتَني ... فَضْـــلاً ، إذا غَيـــرِي جَنـــى أفضَـــالا
وَأُفِيـــدَ سَـــمعَكَ مِقْـــوَلي وَفَضَـــائلي ... وَتُفِيـــــدني أيّامُـــــكَ الإقْبَـــــالا
وَأعـــدُّ مِنـــكَ لَرَيْـــبِ دَهـــرِي جُنَّـــةً ... تثْنـــي جُنُـــودَ خُطُوبِـــهِ فُـــلاّلا(٢٧)

وقد نظر في هذا إلى قول المتنبي :

طَوَى الجَزِيرَةَ حتّـــى جَـــاءَنِي خَبَـــرٌ ... فَزِعْـــتُ فِيـــهِ بِآمَـــالي إلَـــى الكَـــذِبِ
حتَّى إذا لَمْ يَدَعْ لِـــي صِـــدْقُهُ أمَـــلاً ... شَرِقْتُ بالدَّمعِ حتَّى كَادَ يَشْرَقُ بِـــي(٢٨)

وربما كان الرضي أيضا يرمي من وراء اتصاله بالصاحب إلى كسب وده من جهة، وتوسيطه في شان أبيه المعتقل من جهة أخرى وإنْ لم يُصرّح بذلك ، فالحياة السياسية التي عايشها الرضي قد أصـــابها الجفاف والجمود بعد فقد الصاحب رجل الساسة الألمعي الذي أثكل فقده البرية كلّها ، ولا ينفك الشاعر يُومِئ إلى حاجاته ونوازعه وهمومه قائلا :

مَنْ ذا يَكُونُ مُعَوّضـــاً مـــا مَزَّقُـــوا ... وَمُعَـــــوَّلاً لُمُؤمّـــــلٍ وَثِمَـــــالا
فَرَغَتْ أكُـــفٌ مِـــنْ نَوَالِـــكَ بَعـــدَها ... وَأطَـــالَ عُظْـــمُ مُصَـــابِكَ الأشْـــغَالا
أعـــزِزْ عَلَـــيَّ بِـــأنْ يَهُـــزّكَ طَالِـــبٌ ... فَتَضَـــنَّ ، أوْ تَلْـــوِي النّـــوَالَ مَطَـــالا
أوْ أنْ يُنَادِيـــكَ الصّـــرِيخُ لكُرْبَـــةٍ ... حُشِدَتْ عَلَيْهِ ، فَـــلا تُجِيـــبُ مَقَـــالا (٢٩)

وقال يرثي صديقه أبا الحسن أحمد بن علي البتي(*) وهو يشكو في قصيدته هذه من الهموم التي حلت به بعد فراق الأخوان فعانى اغترابا داخليا في نفسه لفقده من يحب عبّر عنه بتلك الأبيات الرثائية التي يقول فيها :

مَـــــا للهُمُـــــومِ كَأنهَـــــا ... نَـــــارٌ علَـــــى قَلْبِـــــي تُشَـــــبُّ
وَالـــــــدّمْعُ لايَرْقَـــــا لـــــهُ ... غَـــــرْبٌ كـــــأنّ العَـــــيْنَ غَـــــرْبُ
لِـــــوَداعِ إخْـــــوَانِ الشّـــــبَا ... بِ مَضَـــــتْ مَطايـــــاهم تَخُـــــبُّ
فـــــارَقْتُهُمْ ، وَالعَـــــيْنُ عَيـــــْ ... ـــــــــنٌ بَعْـــدَهُمْ ، وَالقلـــبُ قَلْـــبُّ
مَـــــا كُنـــــتُ أحسَـــــبُ أنّنـــــي ... جَلْـــــدٌ علـــــى الأزْرَاءِ صَـــــعْبُ
أوْ أنّنـــــي أبْقَـــــى وَظَهْـــــ ... ـــــــــرِي بَعْـــدَ أَقْرَانـــي أجَـــبُّ
لا الوَجْـــــدُ مُنقَطِـــــعُ الوَقـــــو ... دِ وَلا مَـــــزارُ الـــــدمعِ غِـــــبُّ
مَـــــا أخْطَأتْـــــكَ النّائِبَـــــا ... تُ إذا أصَـــــابتْ مَـــــنْ تُحِـــــبُّ(٣٠)

ويقف الشريف الرضي في طليعة شعراء القرن الرابع الهجري الذين رثوا الخلفاء بمعانٍ شديدة الصلة بالسياسة منوهين بما تتعمقهم من نزعات سياسية حفزتها حادثة الفقد ، وهذا ما لمسناه في رثائه لأيام الطائع لله لما خلع وتوجع له مما لحقه ، فقد تفطر قلبه أسى وأسفا لذلك ، وفاضت عبراته ألما وشجى ، فصاغ القوافي الموجعة والأشعار الباكية ، وهذا كل ما يملكه الرضي من مستلزمات الوفاء لصديقه الخليفة .

ومما يؤيد هذا أنّ الشريف الرضي قد رثى الخليفة الطائع لله سنة ٣٩٣ه عندما توفي مخلوعا بمرثيـــة حملت معاني حزنه وألمه وفجيعته أو لنقل بث لواعجه وآهاته في تلك المناسبة غير آبه بما قد يجـــره عليه الموقف بما لا تحمد عقباه معلناً عن اغترابه عن الخليفة القادر بالله .إذ يقول في أبيات منها :

لا أرَى الـــــدّمْعَ كِفَـــــاءً للجَـــــوَى ... لَـــيسَ أنّ الـــدّمعَ مِـــنْ بَعـــدِكَ غـــالي
وبِرُغْمِـــــي أن كَسَـــــوْنَاكَ الثّـــــرَى ... وَفَرَشْـــــنَاكَ زَرَابِـــــيَّ الرمَـــــالِ
وَهَجَرْنَـــــاكَ علـــــى ضَـــــنّ الهَـــــوَى ... رُبّ هِجـــــرَانٍ علـــــى غَيـــــرِ تَقَـــــالي
أيُّهـــــا الظَّـــــاعِنُ لا جـــــازَ الحَيَـــــا ... أبـــــداً بَعـــــدكَ بـــــالحيِّ الحِـــــلالِ
كنـــــتَ فـــــي الاحجـــــالِ أرْجُـــــوكَ وَلا ... أرْتجي اليَـــوْمَ عَظيمـــاً فـــي الحِجَـــالِ

مَعشَـــــرٌ إنْ غابَـــــتِ الأرْضُ بهـــــمْ ... لـــــمْ يَغِيبُـــــوا عِنْـــــدَ مَجْـــــدٍ وَفَعـــــالِ
كُلّمَـــــا ازْدادَتْ بِلـــــىً أعظُمُهُـــــمْ ... نَشَـــــرَتْهُمْ سُـــــمَعٌ غَيـــــرُ بَـــــوَالي
....
لا تَقُـــــلْ تِلْـــــكَ قُبُـــــورٌ ، إنّمَـــــا ... هِـــيَ أصْـــدافٌ علـــى غَيـــرِ لآلِ(٣١)

ويرى البحث أنَّ المعادل الموضوعي كان واضحا في أبيات الشاعر إذ استطاعت التعـابير الشـعرية المكثفة أنّ ترتفع إلى مستوى المعاناة العميقة التي لا يكافئها الدمع ، فراح الشاعر يصور عظيم لوعته وأليم عذابه ماسكا بتلابيب الوشيجة التي تربطه بالمرثي المبغض للخليفة القادر بالله ونهجه التعسـفي في رأي الشاعر وأتباعه ، خاصة أنَّ القادر بالله والشريف الرضي لا يتفقان على رأي ولا مبدأ ، وأنّه يصعب على الشريف أنْ يملك ثقته ، ويفوز برعايته .

وقد عبّر الرضي عن حزنه لوفاة الطائع بقصيدة أخرى ، وتساءل كيف ينسى الطائع قلـب صـدعته المصائب ، فيطلب من قلبه الصبر فلا أحد ينجو من الموت ، ويجب على الإنسـان عـدم الاغتـرار بالدهر، ويشعرنا أنّه يرثي آماله بموت الطائع لله ، وكأنه قد ودّع في الأرض شطر أعضائه وأوصاله بوفاته فيتعجب كيف لم يلحق به بسبب حزنه الشديد ، فعواطف الهم تجدد له الحزن في قوله :

مَضَى الذي كُنـتُ فـي الأيّـامِ آمُلُـهُ ... مِـنَ الرّجَـالِ ، فَيّـا بُعـداً لآمَـالي

قَد كانَ شُغلي من الدّنيَا ، فمُذ فرَغَـتْ ... مِنهُ يَـدي زَادَ طُـولُ الوَجـدِ أشـغالي

....

كأنني لم أدَعْ في الأرضِ،يـوْمَ ثـوَى ... مُوَدّعاً ، شَـطْرَ أعضَـائي وَأوْصَـالي

مَا بَالِيَ اليَوْمَ لـمْ ألحَـقْ بِـهِ كَمَـداً ... أوْ أنزعِ الصّبرَ والسُّلوَانَ مِنْ بَـالي[٣٢]

وما صور رثائه هذه إلا رثاء لطموحه وخيبة أمله من واقعه المرير الذي يكاد يشبه الموت الـذي لا يمكن الفرار منه ، ومهما يكن من شيء فإنَّ الرضي في مراثيه لأبيه وأمه ولصديقه الصابي وابن ليلى والصاحب بن عباد والخليفة الطائع لله وغيرهم جسّد الوفاء لوقفتهم معه وتضـحيتهم دونـه ، وهـذه التضحية كانت عاملاً أساسياً في صدق لوعته وعمق إحساسه بالحزن إذ جاءت ((تعبيراً عن معانـاة الشاعر ، ومأساته في خضم خواطره الحزينة التي انثالت عليه عفويا ، صادرا عن تجربة لا شك أنّها تنطوي على حقيقة مؤلمة ، برع الشاعر في تجسيدها وتصويرها))[٣٣].

ويذكر د. زكي مبارك ((أنّ الرضي كان يجد من نوائبه الوجدانية ينابيع للحزن لا تنضب ولا تغيض))[٣٤]وعن بكائه يقول : ((وما كان الشريف يبكي أحبابه مرة واحدة ثم يلوذ بالصمت . لا ، وإنمـا كان يصل أحبابه بالذكرى والحنين فلا يفقد منهم غير الوجود الملموس ... ولعل ظهـور الخيـل لـم تعرف فتىً أقوى شاعرية من ذلك الفتى البكاء . والفرح والترح يفيضان من ينبوع واحد لو تعلمـون))[٣٥].

ولعل سبب إكثار الشريف الرضي من الرثاء يعود لما امتحنته به السياسـة الجـائرة بفـراق أبيـه ، وحرمانه من الثروة والجاه وهو لمّا يزل فتى صغيراً لا يقوي على تحصيل قوت أو دفع أذى ، ومـا تركته المشاهد المرعبة التي شهدها وامتلأت بها عينه بسبب ما زرعه المتغلبون على السلطة من بذور الفتن والاضطرابات ، كما حاربه الزمان وعاكسه القدر في أمانيه وأحلامه ، كل ذلك أثّر فـي نفـس الشريف الرضي فتسبب باغترابه وخلق منه شاعراً حساساً يجيد الرثاء ويحسن البكاء والعويل حتـى

على من لا تربطه وإياهم صلة رحم أو عاطفة .

وليس غريبا أنْ يتأثر الشريف الرضي بتلك المآتم والمواكب الصاخبة والمجالس الحاشدة التي كانـــت تقام في يوم عاشوراء يوم مصرع جده الإمام الحسين (ع) فهو قد واكبها منذ الحداثة ، وضاقت نفسه لسماعه تلك القصص الحزينة التي قيلت في واقعة كربلاء ، وما ردده النائحون والنائحات من شـــعر حزين في الإمام الحسين وأهل بيته (عليهم السلام) فكان لذلك أبلغ الأثر في نفسه ، فهو حـــين يرثـــي الإمام الحسين (عليه السلام) يصوغ أفكاره عبر لغة يستعين بها ليعبر عن مكنونات نفسه وما يساورها ، من انفعالات وعواطف لإيصالها إلى المتلقي ولذلك اختار صوراً أكثر إيلاماً وتاثيراً في النفـــوس ، فنظم قصائد عدّة في رثاء الإمام الحسين وآل البيت (عليهم السلام) ، وأغلب قصائده نُظِمَتْ في خلافة القادر بالله العباسي – مثلما ينص الديوان – وهذا الخليفة كان يضيق ذرعاً بالشريف الرضي وأشعاره [٣٦]، ومن ذلك قوله وهو يرثي الإمام الحسين (ع) :

رَاحِـــلٌ أنْـــتَ ، وَاللّيَـــالي نُـــزُولُ ... وَمُضِـــــرٌّ بِـــــكَ البَقَـــــاءُ الطّوِيـــــلُ

لاشُـــجاع يبقـــى فييعتنـــق البيـــــ ... ـــــــض ، وَلا امِـــلٌ ، وَلا مَـــأمولُ

غَايَةُ النّـــاسِ فـــي الزّمـــانِ فَنَـــاءٌ ... وَكَـــذا غايَـــةُ الغصُـــونِ الـــذبُولُ

إنّمَـــا المَـــرْءُ للمَنِيّـــةِ مَخْبُـــو ... ءٌ ، وللطّعْـــنِ تُسْـــتجَمّ الخُيُـــولُ

....

عَـــادةٌ للزّمَـــانِ فـــي كُـــلِ يَـــوْمٍ ... يَتَنَـــاءَى خَـــلٌ وَتَبكـــي طُلـــوُلُ

فَاللّيَالي عَـونٌ عليْـك مـع البيـــــ ... ـــــنِ ،كمـــا سَـــاعَدَ الـــذّاوبَلَ طُـــولُ

....

هيَ دُنيَا إنْ وَاصَـلتْ ذا جفـت هـا ... ذا مَـــــلاَلاً ، كَأنهَـــا عُطبُـــولُ[٣٧]

فبعد أنْ بدأ في مقدمته واعظاً وحكيماً انتقل إلى وصف يوم عاشوراء يوم استشهاد الإمام الحســين(ع) ليذكر الناس بما جرى من عدم نصرة ابن بنت نبيهم (صلّى الله عليه وآله وسلّم) فقد ضيع قاتلوه العهد ، ولم يراعوا النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) إلاً ولا ذمةً ، ولعل الرضي أراد من خلال ذلك إثارة العامة واستقلال عواطفهم من أجل الثورة وإزالة الظلم ، فرسم هذه الصورة من فيض روحه الممتلئة حزنا وغضباً وثورةً ، قائلاً :

أيُّ يَـــوْمٍ أدمَـــى المَـــدامِعَ فيـــهِ ... حَـــادِثٌ رَائِـــعٌ ، وَخَطـــبٌ جَلِيـــلُ

يَوْمُ عاشـــوراءَ الـــذي لا أعَـــانَ الـــــ ... ـــــصَحْبُ فيـــهِ وَلا أجَـــارَ القَبيـــلُ

يا ابنَ بنتِ الرّسُولِ ضَـيّعَت العَـهْـــــ ... ـــــدَ رجـــالٌ ، وَالحـــافِظونَ قَليـــلُ

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٤ – السنة ٢٠١٩

ما أطـــاعُوا النبـــيّ فيـــكَ ، وقَـــد مَـــا لَـــــتْ بأرْمَـــــاحِهِمْ إلَيـــــكَ الـــــذُّحولُ

....

أتُرَانـــــي أُعِيـــــرُ وَجْهِـــــيَ صَـــــوْناً وَعَلَـــــى وَجهِـــــهِ تَجـــــولُ الخيُـــــولُ

أتُرَانـــــي ألَـــــذُّ مَـــــاءٌ ، ولَمّـــــا يَـــــرِدْ مِـــــنْ مُهجَـــــةِ الإمـــــامِ الغَلِيـــــلُ

قَبّلَتْـــــهُ الرّمَـــــاحُ وَانتَضَـــــلَتْ فِيـــــ ـــــهِ المَنَايَـــــا ، وَعَانَقَتْـــــهُ النُّصُـــــولُ [٣٨]

فالعهد الذي ضيعوه هو المودة في قوله تعالى : ﴿ **قُل لا أَسئَلُكُم عَلَيهِ أَجراً إلا المودة في القربى**﴾[٣٩].

ويظهر الرضي في هذه المرثية براعته في استثارة الحزن والألم ، فاستطاع بقوة التصوير لديه وسعة خياله أنْ يحول ذلك المشهد إلى صورة مرئية محسوسة على الرغم من مرور أكثر من ثلاثمائة عـــام على استشهاد الإمام الحسين (ع) ، وتقلب الزمان وتطور الأحداث .

فاستطاع الشريف الرضي أنْ يعبر في شعره عن اغترابه وموقفه السياسي لجمع المؤيدين من حولـــه ويبث فيهم روح الحسين من أجل الثورة والتغير؛ لأنه يرى أنّ حقه مغتصب مثل حق جـــده الإمـــام الحسين (عليه السلام) الذي أغْتُصِبَ من قبلُ . فلذا كان المنبر الحسيني وسيلة من وســـائل الإعـــلام الكبرى ، وسلاحاً له خطره ومضاؤه في محاربة الظلم ، وهذا ما دفع الشريف الرضي إلى اســـتقلال تلك المجالس الحسينية لرثاء الإمام الحسين (ع) الذي كان يمثل قيمة عليا لأنّه يعني من الناحية الدينية قيادة الثورة ضد الطغاة .

الخـــــــــــــــاتمة

وبعد حمد الله على توفيقه قد رسا البحث **(الاغتراب في رثاء الشريف الرضي)** على جملة من الشذرات التي استقطبتها والتي يمكن الإشارة إليها بإيجاز وهي:

- كشف البحث عن أهم المراثي التي عبر فيها الرضي عن جانب كبير من نفسيته وإحساسه بالاغتراب وتغلغل الحزن في أعماقه .
- بيّن البحث أنَّ الرضي قد اتجه إلى إحساسه الخاص فتخلى فيه عن كثير من وقاره غير ملتفت إلى أية قواعد أو تقاليد أو أعراف أو أية شرائط تُفرَض عليه من خارج نفسه المفجوعة وهو يرثي والدتـــه أو والده أو أصدقاءَهُ بعد وفاتهم .
- أوضح البحث أنّ مشاهدة الرضي لتلك المآتم والمواكب الصاخبة التي كانت تقام في يوم عاشـــورا يوم مصرع جده الإمام الحسين (عليه السلام) كان لها أبلغ الأثر في نفسه ، لذلك حين يرثـــي الإمـــام الحسين (عليه السلام) يصوغ أفكاره عبر لغة يستعين بها ليعبر عن مكنونات نفسه ومايساورها مـــن انفعالات وعواطف لإيصالها إلى المتلقي.
- وجد البحث أنّ الشريف الرضي قد اختار صوراً أكثر إيلاماً وتأثيراً في النفوس ، ولعلـــه أراد مـــن خلال ذلك إثارة العامة واستقلال عواطفهم من أجل الثورة وإزالة الظلم .

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٤ – السنة ٢٠١٩

- وجد البحث خلو رثاء الشريف للإمام الحسين وآل البيت(عليهم السلام) من التعرض للصحابة وعـــدم هجاء الآخرين كما فعل غيره من الشعراء .
- بيّن البحث أنَّ الشريف الرضي قد اتخذ من المنبر الحسيني وسيلة من وسائل الإعلام الكبرى ، وهـــذا مادفعه إلى استقلال تلك المجالس الحسينية لرثاء الإمام الحسين (عليه السلام) الذي كان يمثل أعلـــى القمم ؛لأنه يعني من الناحية السياسية والدينية قيادة الثورة ضد الطغاة .

هوامش البحث

(١) البيان والتبين ، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ه) ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، بيروت ، ط٢ ، (د. ت) : ٢٣٠/٢.

(٢) أدب السياسة في العصر الاموي ، أحمد محمد الحوفي ، دار نهضة مصر ، ط٣ ، (د. ت) : ١٨٩.

(٣) ينظر : الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي ، عزيز السيد جاسم ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط٢ ، ١٩٨٧م : ١٣٢.

(٤) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، أبو منصور الثعالبي ، (ت ٤٢٩ه) ، تحقيق : محمد محي الـــدين ، مطبعـــة السعادة ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٦٥م : ١٤٩/٣.

(٥) شرح نهج البلاغة ، لابن ابي الحديد ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار أحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ١٩٦٥م : ٣٣/١.

(٦) الوافي بالوفيات ، صلاح الدين خليل بن ايبك بن عبدالله الراوندي ، (ت ٧٦٤ه) ، باعتناء س. ديدرينغ ، مطبعـــة وزارة المعارف ، استانبول ، ١٩٤٩م: ٣٧٤/٢.

(٧) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، آدم متز ، نقله إلى العربية عبد الهادي أبـــو ريـــده ، دار الكتـــاب العربي ، بيروت ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٤ ، ١٩٦٧م : ١٣٣/١.

(٨) ديوان الشريف الرضي ، شرحه وعلق عليه وضبطه وقدم له الدكتور محمود مصطفى حلاوي ، شركة دار الأرقم بن ابي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٩م : ٢٣٨/١.

(٩) المصدر نفسه : ٧٣/١ .

(١٠) المصدر نفسه : ٧٤/١-٧٥. ثلم : خدش . عراني : أصابني . البرحاء : الشدة.

(١١) المصدر نفسه : ١ /٧٧ – ٧٨. الصفيح : الحجارة المصفحة التي توضع فوق أحجار القبر .

(١٢) المصر نفسه : ٢ /٢٤٥-٢٤٩ . المرزم : الذي لا ينقطع رعده . متالع ويلملم : جبلان . المستلئم : لابس اللامة ، الدرع .

(١٣) المصدر نفسه : ٢٥٠/٢ . العرمرم : كثير العدد . الشاكلةَ : الخاصرة . الرمي : المرمي .

(١٤) ينظر : يتيمة الدهر : ٢٤٤/٢.

(١٥) ديوان الشريف الرضي : ٤٢٥/١ – ٤٢٩ .

(١٦) المصدر نفسه : ٤٢٦/١ – ٤٢٧.

(١٧) المصدر نفسه : ٤٩٦/٢ . استشرفتنا : انتصبت وعلت أمامنا ، استشرفت الروض: رفع بصـــره ينظـــر إليـــه. تحلبت:سالت . الأوشال : مفردها الوشل : القليل . المآقي : جوانب العيون .

(١٨) المصدر نفسه : ٦٨/٢ .

(١٩) ينظر : الشريف الرضي في رثائه ، افتخار عارف الوسواس ، منشورات مكتبة المثنى ببغداد ،(د. ت) : ٦٨-

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٤ – السنة ٢٠١٩

٦٩.

(٢٠) ديوان الشريف الرضي :٤٢٥/١ .

(٢١) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، عبد الله الطيب المجذوب ، بيروت ، ١٩٧٠ : ٢٤٦.

(٢٢) ينظر : الشريف الرضي في رثائه : ٧٣.

(٢٣) ديوان الشريف الرضي : ١/ ٤٢٨.

(*) ابن ليلى: هو أبو العوام ، سيد عشيرة بدوية كان يدعو للشريف الرضي ، وقد قامت صداقة وطيدة بينهما ، وله فيه قصائد ومراث عدّة . (ينظر: هامش الديوان :٢٦٨/٢).

(٢٤) ديوان الشريف الرضي : ١/ ٣٠٠-٣٠١. الثبط : الشغل . المعاج : التلوي والانثناء .

(٢٥) المصدر نفسه : ٢٦٨/٢ – ٢٦٩ . ضِمارٌ : الأمر الذي لا يكون المرء على ثقة من حدوثه. الأدماء : الظبية البيضاء. الجازية : البقرة الوحشية . البغوم : الرخيمة الصوت . المقصة : تتبع الاثر . الشميم : التي تشم الأرض لتعرف الطريق .

(٢٦) ينظر : عبقرية الشريف الرضي ، زكي مبارك ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠١٠م : ٢ /٧١.

(*) الصاحب بن إسماعيل بن عباد : أبو القاسم الطالقاني ، وزير غلب عليه الأدب ، فكان من نوادر الدهر علماً وفضلاً وتدبيراً وجودة رأي ، استوزره مؤيد الدولة البويهي ، ثم أخوه فخر الدولة ، لُقّبَ بالصاحب لصحبته مؤيد الدولة من صباه ، وُلِدَ في الطالقان سنة ٣٢٦هـ ، وإليها نسبته ، وتوفي سنة ٣٨٥هـ ونُقِلَ إلى أصبهان فدُفِنَ فيها . (ينظر : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن أبي بكر بن خلكان ، (ت ٦٨١ه)، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر، بيروت ، ١٩٧٢م :٧٥/١).

(٢٧) ديوان الشريف الرضي : ١٧٥/٢-١٨١.

(٢٨) ديوان المتنبي، شرح البرقوقي ، دار الكاتب العربي ، بيروت ، لبنان ،١٩٨٠م :٩٩/١.

(٢٩) ديوان الشريف الرضي :١٨١/٢.

(*) أحمد بن علي أبو الحسن الكاتب ، البتي ، كان كاتب الخليفة القادر بالله مدة ، وكان أديباً شاعراً، خطيباً فصيحاً، وكان البتي صاحب الخبروالبريد في الديوان القادري .(ينظر : المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي ، (ت٥٩٧هـ) ، حيدر آباد، دار المعارف العثمانية ، ١٣٥٩هـ : ٧ /٢٦٣).

(٣٠) ديوان الشريف الرضي: ٢٣٨/١. الدمع لايرقا : أي يرقأ ، بتسهيل الهمزة ، معناه لا ينقطع . غرب :ا لأول : عرق في العين يفيض بالدمع ،وغرب (الثاني) : الدلو العظيمة الممتلئة ماء .

(٣١) المصدر نفسه : ٢/ ١٧٤-١٧٥. الزرابي : البُسُط . الاحجال : مفردها حجل : القيد . الحجال : مفردها حجلة : مايزين الثياب والستور للعروس .

(٣٢) المصدر نفسه : ١٨٧/٢. الكمد : الحزن الشديد .

(٣٣) المرثاة الغزلية في الشعر العربي ، د. عناد غزوان ، مطبعة الزهراء ، بغداد ، ١٩٧٥م : ٧٥.

(٣٤) عبقرية الشريف الرضي : ٧١/٢.

(٣٥) المصدر نفسه : ٢/ ٧٢.

(٣٦) ينظر : ديوان الشريف الرضي : ١/ ٣٨ – ٣٩.

(٣٧) المصدر نفسه : ١٦٣/٢. عطبول : المرأة الفتية الجميلة .

(٣٨) المصدر نفسه : ١٦٤/٢. الذحول : الثارات .

(٣٩) سورة الشورى : ٢٣ .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- أدب السياسة في العصر الأموي ، أحمد محمد الحوفي ، دار نهضة مصر ، ط٣ ، (د. ت) : ١٨٩.
- الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي ، عزيز السيد جاسم ، دار الشؤون الثقافيـــة العامـــة ، بغداد، ط٢ ،١٩٨٧م.
- البيان والتبين ، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، (ت ٢٥٥ه) ، تحقيق : عبد الســـلام محمـــد هارون ، دار الفكر ، بيروت ، ط٢ ، (د. ت).
- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، آدم متز ، نقله إلى العربية عبد الهادي أبو ريـــده ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٤ ،١٩٦٧م.
- ديوان الشريف الرضي ، شرحه وعلق عليه وضبطه وقدم له الدكتور محمود مصطفى حـــلاوي ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٩م.
- ديوان المتنبي ، شرح البرقوقي ، دار الكاتب العربي ، بيروت ، لبنان ،١٩٨٠م.
- شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ١٩٦٥م.
- الشريف الرضي في رثائه ، افتخار عارف الوسواس ، منشورات مكتبة المثنى ببغداد ، (د. ت).
- عبقرية الشريف الرضي ، زكي مبارك ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠١٠م.
- المرثاة الغزلية في الشعر العربي ، د . عناد غزوان ، مطبعة الزهراء ، بغداد ، ١٩٧٥م .
- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، عبد الله الطيب المجذوب ، بيروت ،١٩٧٠م.
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي ، (ت٥٩٧هـــ) ، حيدر آباد، دار المعارف العثمانية ، ١٣٥٩هـــ.
- الوافي بالوفيات ، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبدالله الراونـــدي ، (ت ٧٦٤ه) ، باعتنـــاء س. ديدرينغ ، مطبعة وزارة المعارف ، استانبول ، ١٩٤٩م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن أبي بكر بن خلكان ، (ت ٦٨١ه)، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر، بيروت ، ١٩٧٢م.
- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، أبو منصور الثعالبي ، (ت ٤٢٩هـــ) ، تحقيق : محمد محي الدين ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٦٥م.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ١ – المجلد ٤٤ – السنة ٢٠١٩